فَصلٌ في ذِكر يُونس عَلَيه السَّلام[١]

وقال مقاتل: ذكره الله في أربعة مواضع، وهو اسم أعجمي، وأبوه متَّى في قول مجاهد، ومتَّى من ولد بنيامين بن يعقوب، وقال مقاتل: متَّى اسم أمه، ولم ينسب أحد من الأنبياء إلى أمه غير يونس وعيسى بن مريم عليهما السلام، قال: وهو من ولد بنيامين بن يعقوب، وفيه ثلاث لغات: ضم النون وفتحها وكسرها والهمز في اللغات الثلاث، وضم النون أجود.

وذكر أبو حنيفة ابن النُّوبي: أن أم يونس كانت من ولد هارون عليه السلام، ومات أبوه وهي حامل، فوضعته ولم يكن لها لبن، فأتت إلى الرِّعاء فسألتهم اللبن فمنعوها إياه، فلما منعوها وضعته في غار، فقيَّض الله له شاة تأتيه كل يوم فيرضع منها، فأقام على ذلك أربع سنين، وفطن له الرعاة، فآمن به سبعون نبياً، ثم أكرمه الله بالنبوة.

واختلفوا في زمان كَونه على قولين: أحدهما: بعد شعيا، والثاني: بعد سليمان. والأول أشهر.

وكان يونس رجلاً صالحاً من عبَّاد بني إسرائيل وأنبيائهم، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾﴾[الصافات: ١٣٩].

وقد أثنى عليه نبيُّنا ﷺ، قال أحمد بن حنبل بإسناده عن ابن مسعود قال رسول الله ﷺ: «لا يَنْبَغي لأحَدٍ أنْ يكونَ خيراً من يُونُسَ بن متَّى»[٢]. ونسبه إلى أبيه متفق عليه، وفي المتفق عليه عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يَنْبَغي لعبدٍ أنْ يقول: أنا خَيرٌ مِن يُونُسَ بن متَّى» ونسبه إلى أبيه[٣].

---

(١) في (ب): الباب التاسع والعشرون في ذكر يونس عليه السلام، وانظر قصته في «تاريخ الطبري» ٢/ ١١، وتفسيره ١٥/ ٢٠٥، و«البدء والتأريخ» ٣/ ١١٠، و«عرائس المجالس» ص ٤١٠، وتفسير الثعلبي ٥/ ١٥١ و٦/ ٣٠١، والماوردي ٢/ ١٨٤، و«المنتظم» ١/ ٣٩٥، و«التبصرة» ١/ ٣٢٦، وزاد المسير ٤/ ٦٥ و٧/ ٨٦، و«الكامل» ١/ ٣٠٦، و«البداية والنهاية» ٢/ ١٦.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤١٩٦)، و«البخاري» (٤٨٠٤).

(٣) أخرجه «البخاري» (٣٣٩٥)، و«مسلم» (٢٣٧٧).

وكذا في المتفق عليه عن أبي هريرة: «ومَن قال غيرَ ذلك فقد كَذَب»[١].

وأخرجه أحمد بن حنبل في «المسند» عن عبد الله بن جعفر، وفيه: «ما ينبغي لنبي» وذكره[٢].

وهذا دليل على تواضع رسول الله ﷺ لأن يونس كان قليل الصبر. وقيل: إن هذا الحديث منسوخ بقوله عليه السلام: «أنا سيِّدُ ولدِ آدَمَ»[٣].

ذكر قصته

قال الله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ الآيات [الأنبياء: ٨٧].

اختلف أرباب السير في قصة يونس:

قرأت على شيخنا الموفق المقدسي رحمه الله قال: حدثنا أحمد بن المبارك بإسناده، عن قتادة، عن الحسن: أن يونس عليه السلام كان مع نبي من الأنبياء، فأوحى الله إليه أن ابعث يونس إلى [أهل] نِينَوى يُحذِّرهم عقوبتي، قال: فمضى يونس عليه السلام على كُرهٍ منه، وكان رجلاً صالحاً حديداً شديد الغضب، فأتاهم فحذرهم وأنذرهم، فكذَّبوه وردوا عليه نصيحته، ورموه بالحجارة، وأخرجوه، فانصرف عنهم، فقال له نبي من بني إسرائيل: ارجع إلى قومك. فرجع إليهم فرموه بالحجارة، فقال له النبي: ارجع إليهم فرجع، فكذَّبوه، فواعدهم العذاب، فكذَّبوه وكفروا بالله وجحدوا كتابه، فدعا عليهم عند ذلك فقال: يا ربِّ، إن قومي أَبَوْا إلا الكفر، فأَنْزِلْ عليهم نِقمتك. فأوحى الله إليه: إني أُنزلُ بقومك العذاب. فخرج عليهم يونس وأوعدهم العذاب بعد ثلاثة أيام. فأخرج أهله وانطلق، فصعد الجبل ينظر إلى أهل نِينَوى ويترقب العذاب، فجاءهم العذاب، وعاينوه، فتابوا إلى الله، فكشف عنهم العذاب. فلما رأى ذلك جاءه إبليس فقال له: يا يونس، إنك إن رجعت إلى قومك اتهموك وكذبوك، فذهب مغاضباً لقومه، فانطلق، حتى أتى شاطىء دِجلة فركب سفينة، فلما توسَّطت

(١) أخرجه «البخاري» (٤٦٠٤)، و«مسلم» (٢٣٧٦).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (١٧٥٧).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٥٤٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الماءَ أوحى الله إليها أن اركدي فركدت؛ والسفنُ تمرُّ يميناً وشمالاً، فقالوا: ما بال سفينتكم؟ قالوا: لا ندري، قال يونس: أنا أدري، إنَّ فيها عبداً أبق من ربه، فلا تسير حتى تلقوه في الماء، قالوا: ومن هو؟ قال: أنا، وعرفوه، قالوا: أمَّا أنت فليس نلقيك؛ والله ما نرجو النجاةَ إلَّا بك. قال: فاقترعُوا، فمن وقعت عليه القرعة فألقوه في الماء، فاقترعوا، فقرعهم يونس عليه السلام، فأَبَوْا أن يلقوه، وأقرع القومَ ثانياً وثالثاً، فقرعهم يونس، فقال: يا قوم، اطرحوني في الماء وانجوا، فقام القوم فاحتملوه شبه المشفقين عليه، فقال: ايتوا بي صَدْرَ السفينة، ففعلوا، وإذا بالحوت فاتح فاه، فقال: ردُّوني إلى مؤخَّر السفينة، ففعلوا، واستقبله الحوت فاتحاً فاه، فلما رأى جوفه وهوله قال: يا قوم، ردُّوني إلى وسط السفينة، فردُّوه، فاستقبله الحوت، فقال: ردُّوني إلى الجانب الآخر، فاستقبله الحوت فاتحاً فاه ليأخذه، فقال: ألقوني وانجوا؛ فلا منجى من الله إلا إليه. فطرحوه، فالتقمه الحوت قبل أن يبلغ الماء، وانطلق به الحوت إلى مسكنه من البحر، ثم انطلق به إلى قرار الأرض، فطاف به أربعين يوماً، فسمع يونس تسبيح الحصى والحيتان، فجعل يسبِّح ويهلِّل ويقدِّس، وكان يقول في دعائه: إلهي وسيدي ومولاي، في السماء مسكنك، وفي الأرض قدرتك وعجائبك، سيدي، من الجبال أهبطتني، وفي البلاد سيَّرتني، وفي الظلمات الثلاث حبستني. إلهي، سجنتني بسجن لم يسكن به أحد قبلي. إلهي، عاقبتني بعقوبة لم يُعاقب بها أحد قبلي. فلما تم له أربعين يوماً وأصابه الغمُّ ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الأنبياء: ٨٧].

قال: فسمعَتْ الملائكة بكاءه، وعرفوا صوته، فبكت الملائكة وبكت السماوات والأرض والحيتان لبكائه، فقال الجبَّار: يا ملائكتي، ما لي أراكم تبكون؟ قالوا: ربَّنا، صوتٌ حزين ضعيف نعرفه في مكان غريب، قال: ذاك عبدي يونس، عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر، فقالوا: يا ربَّنا، العبد الصالح الذي كان يصعدُ له في كلِّ يوم وليلة العمل الصالح الكثير؟ وقال ابن عباس: قال الله تعالى: نعم. قال: فشفعت له الملائكة والسماوات والأرض، فبعث الله جبريل عليه السلام، فقال: انطلق إلى الحوت الذي حبستُ يونسَ في بطنه، فقل له: إنَّ لي في عبدي حاجةً،

فانطلقْ به إلى الموضع الذي بلعته فيه، فاقْذِفْه فيه. فانطلق جبريل عليه السلام إلى الحوت فأخبره، فانطلق الحوت بيونس عليه السلام وهو يقول: يا ربِّ، استأنستُ في البحر بتسبيح عبدك يونس، واستأنَستْ به دوابُّ البحر، وكنتُ أزكى شيء به، وجعلتُ بطني له مصلىً يقدسك فيه، فقُدِّسْتُ به وما حولي من البحار، أفتخرجه عني بعد أُنسٍ كان لي به؟ فقال الله تعالى: إني أَقَلْتُ عثرته ورَحِمْتُه، فألقِه. قال: فجاء به إلى حيث ابتلعه ببلد على شاطىء دِجلة، فدنا جبريل من الحوت، وقرَّب فاه من فِي الحوت، وقال: السلام عليك يا يونس، ربُّ العزةِ يُقرئك السلام، فقال يونس: مرحباً بصوت كنتُ خشيتُ أن لا أسمعه أبداً. فقذفه الحوت مثل الفرخ الممعوط[1] الذي ليس عليه ريش، فاحتضنه جبريل. قال الحسن: فأنبت الله عليه شجرة من يقطين؛ وهي الدُّبَّاء فكان لها ظلٌّ واسع يستظل به، وأُمِرَتْ أن ترضعه أغصانَها، فكان يرضع منها كما يرضع الصبي.

وقال الحسن: بعث الله إليه وَعْلَةً من وُعُلِ الجبل يدرُّ ضرعها لبناً، فجاءت إليه وهو مثل الفرخ، فجعلت ثديها في فيه وهو يمصُّه مصَّ الصبيِّ، فإذا شبع انصرفت، فكانت تختلف إليه حتى اشتدَّ ونبت شعره خلقاً جديداً، ورجع إلى حاله قبل أن يقع في بطن الحوت، فمرَّتْ به مارَّةٌ فكَسَوهُ كساء. فبينما هو ذات يوم نائم إذ أوحى الله إلى الشمس أن احرقي شجرة يونس، فأحرقتها، فأصابت الشمس جلده فأحرقته، فقال: يا ربِّ، نجيتني من الظلمات، ورزقتني ظلَّ شجرة كنت أستظل بها، فأحرقتَها، أفتحرقني يا ربِّ؟ وبكى، فأتاه جبريل، فقال له: يا يونس، إن الله يقول لك: أنت زرعتها أم أنا؟ أنت أنبتَّها أم أنا؟ فقال: بل الله، قال: فبكاؤك لماذا؟ فكيف دعوت على مئة ألف أو يزيدون أردت هلاكهم؟ وقال ابن عباس: قال له جبريل: أتبكي على شجرة أنبتها الله تعالى لك، ولا تبكي على مئة ألف أو يزيدون أردتَ هلاكهم في غداة واحدة؟ فعند ذلك عرف يونس ذنبه، فاستغفر ربه، فغفر له.

وعن الزُّهري: لما قوي يونس كان يخرج من الشجرة يميناً وشمالاً، فأتى على رجل

(١) الممعوط: من قَلَّ شعره.

يصنع الجِرار، فقال له يونس: يا عبد الله، ما تصنع؟ قال: الجِرار، فأبيعها أطلب فيها فضلَ الله. فأوحى الله إلى يونس: قل له يكسر جراره، فقال له يونس ذلك، قال: فغضب، وقال: إنك رجل سوء تأمرني بالفساد؛ تأمرني أن أكسر شيئاً عملته وصنعته ورجوتُ خيره. فأوحى الله إليه: يا يونس، ألا ترى إلى هذا الجرَّار كيف غضب لمَّا أمرته بكسر ما صنع، وأنت تأمرني بهلاك قومك؟! فما الذي يشقُّ عليك أن يَصلح من قومك مئة ألف أو يزيدون؟ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ [الصافات: ١٤٣] يعني من المصلِّين من قبل أن تنزل البليَّة ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٤].

قال ابن عباس: من كان ذاكراً لله في الرخاء ذكره الله في الشدَّة واستجاب له، ومن يغفل عن الله في الرخاء وذكره في الشدة لم يستجب له.

قال الله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾[الأنبياء: ٨٧]، فقال الله: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾[الأنبياء: ٨٨]، يقول الله تعالى: كذلك نفعل بالصالحين إذا وقعوا في الخطيئة ثم تابوا إليَّ قبلتُ توبتهم. روى ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «دعا أخي يونس بهذه الدعوات في الظلمات، فأنجاه الله بها؛ فلا يدعو بها مؤمن مكروبٌ إلا كشف الله ذلك عنه، إنَّ بها عدة من الله لا خلف لها».

هذه صورة ما ذكره الشيخ الموفق في «التوابين»[1].

وروى مجاهد عن ابن عباس، قال: كان يونس وقومه يسكنون أرض فلسطين، فغزاهم ملك، فسبى منهم تسعة أسباط ونصف سبط، فأوحى الله إلى شعيا بن أمصيا أن سرْ إلى حزقيا الملك، وقل له حتى يبعثَ نبياً قويّاً أميناً، فإني أُلقي في قلوب أولئك أن يرسلوا معه بني إسرائيل، فقال له الملك: من ترى؟ وكان قد بقي في مملكته خمسة أولاد من أولاد الأنبياء، فقال: يونس، فإنه قوي أمين. فدعاه الملك، فأمره بالخروج،

(١) «التوابين» (١٥).

فقال له يونس: هل أمرك الله أن تخرجني؟ قال: لا قال: فهل سَماني لك؟ قال: لا، قال: فإنَّ ها هنا أنبياء أقوياء أمناء، فألحوا عليه، فخرج مغاضباً للمَلِك حزقيا والنبي شَعْيا وقومه، فأتى بحر الروم فإذا سفينةٌ مشحونةٌ فركبها، فوقفت أو تكفَّأَتْ حتى كادوا أن يغرقوا، فقال الملاحون: ها هنا ها هنا عبد عاصٍ أو آبق، ومِنْ رَسْمِنَا أن نقترع في مثل هذا، فمن وقعت عليه القرعة ألقيناه في البحر ومضينا، ولأن يغرقَ واحدٌ خير من أن تغرق السفينة ومن فيها. ثم اقترعوا ثلاثاً وفي كلِّ مرة تقعُ القرعةُ على يونس، فقال يونس: أنا ذلك الآبق العاصي. وألقى نفسه في البحر فالتقمه حوت، وجاء حوت آخر فالتهم الحوت الأول. فأوحى الله إلى الحوت: لا تؤذِ منه شعرةً، فإني جعلت بطنك له مسجداً وسجناً، ولم أجعله طعاماً لك[1].

وقد رواه العَوفي عن ابن عباس.

وقال مقاتل: التقمه الحوت بدِجلَة ثم نزل به إلى الأُبُلَّة، ودخل به إلى البحر، فلم يُبقِ بحراً حتى طاف به.

وقال وهب: كان يونس رجلاً فيه حدة وضيق خلق، فلما حملت عليه أثقال النبوَّة تفسَّخ تحتها تفسُّخ الرُّبَع تحت الحِملِ الثقيل ـ يعني بالربع: الفصيل ـ فلهذا أخرجه الله من أُولي العزم من الرسل بقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[الأحقاف: ٣٥].

﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾[القلم: ٤٨] أي: لا تتلقَّ أمره كما تلقَّاه[2].

وقال السُّدي ومقاتل: كان يونس قبل النبوة من عُبَّاد بني إسرائيل في جبل يفرُّ بدينه من شاهق إلى شاهق، فبعثه الله إلى أهل نِينوَى من أرض الموصِل، وهو ابن أربعين سنة، وكانوا يعبدون الأصنام، فضاق بالرسالة ذرعاً ودعا إلى الله وشكا، فأوحى الله إليه: بلِّغهم الرسالة فإن لم يستجيبوا لك عذَّبتهم، وإن لم تبلِّغهم أصابك ما يصيبهم من العذاب، وقد أجلتهم أربعين يوماً، فقام فأنذَرهم وكان صوته بالقراءة مثل صوت داود

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٤١٢-٤١٣، و«تفسير البغوي» ٢/ ٣٦٩.

(٢) انظر «تفسير البغوي» ص ٨٥٢.

عليه السلام، وأخبرهم بالأجل فقالوا: إذا رأينا أسباب العذاب آمنَّا. فلما مضى من الأجل خمسة وثلاثون يوماً غامت السماء غيماً أسود فاسودَّت سطوحاتهم، فأيقنوا بالعذاب، فأوحى الله إليه: أخبرهم بأن العذاب مصبِّحَهم بعد ثلاث، فأخبرهم فقالوا: لم نجرِّب عليه كذباً قط، فانظروا فإن بات فيكم الليلة فليس بشيء، وإن لم يبتْ وإلا صبَّحكم العذاب كما قال. فلما كان في جوف الليل خرج يونس من بين أظهرهم، فلما أصبحوا تغشَّاهم العذاب كما يُغَشِّي الثَّوبُ[1]، وصار على رؤوسهم قدر ميل، فلما رأوا ذلك أيقنوا بالهلاك، وطلبوا نبيَّهم يونس فلم يجدوه، فقذف الله في قلوبهم التوبة، فخرجوا إلى الصعيد بأهاليهم وصبيانهم ومواشيهم، ولبسوا المُسوحَ وأظهروا الإيمان وأخلصوا النيَّة في التوبة، وفرَّقوا بين كل والدة وولدها من الناس والدَّواب، فَحَنَّ بعضها إلى بعض، وعَلت الأصوات واختلطوا وعجُّوا إلى الله تعالى وبكوا وتضرعوا، وقالوا: آمنا بما جاء به يونس.

وقال ابن مسعود: ترادُّوا المظالم فيما بينهم، حتى إن الرجل كان يأتي إلى أساس داره فيقلع الحجر الذي غصبه ويرده إلى صاحبه وصاحوا: يا حيُّ حين لا حيٌّ، يا محيي الموتى، لا إله إلا أنت، فكشف الله عنهم العذاب[2].

قال ابن عباس: فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ الآية [يونس: ٩٨]، ومعناه: فهلا، وكذا هو في مصحف ابن مسعود وأُبيٍّ.

وقال الربيع: معناه: لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتَّعناهم إلى حين، وهو وقت انقضاء آجالهم.

وقال مجاهد: إنما نفعهم إيمانهم في وقت اليأس لأن آجالهم بقيت منهم بقية فنجوا بما بقي من آجالهم، فأما إيمان من قد انقضى أجله فغير نافع عند حضور الأجل. وهذا الكلام في غاية الجودة.

وقال ابن عباس: غشيهم العذاب كما يغشى التُّرب[3] القبر إذا دخل صاحبه فيه.

---

(١) في (ط): التراب القبر، والمثبت من (ب، ك).

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٤١١ـ٤١٢، و«المنتظم» ١/ ٣٩٥ـ٣٩٦.

(٣) في (ك): الثوب، وليس في (ب)، والمثبت من (ط).

وقال: وكان العذاب على رؤوسهم قدر ثلثي ميل[١].

وثار عليهم دخان أسود، فعاينوا الموت، ثم كشفه الله عنهم. فإن قيل: فلم كشف الله العذاب عن قوم يونس دون غيرهم من الأمم ولم يقبل توبة فرعون؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: لأن الله علمَ منهم صدقَ النيَّات. ألا ترى إلى فرعون لما عاين الغرق قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[يونس: ٩٠] فلم يخلص النيَّة وقد باشره العذاب، وهؤلاء لم يباشرهم، ذكره الزجاج.

والثاني: لأنَّ الله تعالى خصَّ قوم يونس بذلك لما أقنطهم يونس من رحمة الله تعالى وكما قال: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾[يونس: ٩٨]، ذكره ابن الأنباري[٢].

والثالث: لأنَّ القوم افترقوا ثلاث فرق: الشيوخ، والشباب، والصبيان والنساء، فجاء العذاب فوقف على رؤوس الشيوخ فقالوا: اللهم إنك أمرتنا أن نعتق أرقاءنا، ونحن أرقاؤك فأعتقنا. فانتقل إلى رؤوس الشباب فقالوا: اللهم إنك أمرتنا أن نعفو عمن ظلمنا، وقد ظلمنا أنفسنا فاعفُ عنا. فانتقل إلى رؤوس الصبيان والنساء فقالوا: اللهم إنك قد علمتَ ضعفنا وعجزنا فأنت أولى من رحمنا. وتضرَّع الأطفال فرحمهم الله تعالى.

والرابع: أنه بقيت من آجالهم بقية كما قال مجاهد، وهو الأصحُّ، فإنَّ من انقضى أجله لم ينفعه إيمانه. والدليل عليه ما رواه أبو حنيفة ابن النُّوبي في كتاب «الأسولة» قال: قال بعض الأنبياء: إلهي، لم رفعت العذاب عن قوم يونس وأهلكت قومي؟ فقال الله تعالى: لأن آجال قومك فنيت، وقوم يونس لم تفن آجالهم.

وأنبأنا شيخنا الموفق رحمه الله بإسناده الماضي في أول الفصل إلى إسحاق بن بشر قال: حدثنا جُوَيبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس قال: لما أيس يونس من إيمان قومه دعا ربَّه عليهم فقال: اللهم أنزل عليهم نقمتك. وخرج ومعه ابنان صغيران، فصعد

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٤١١.

(٢) انظر «التبصرة» ١/ ٣٢٩، وزاد المسير ٤/ ٦٦.

جبلاً ينظر إلى أهل نِينَوَى ويترقب العذاب، وبعث الله تعالى جبريل فقال: انطلق إلى مالكٍ خازن النار فقل له يُخرج من سَموم جهنم بمقدار مثقال شعيرة. ففعل جبريل ما أمره ربه. قال ابن عباس: فخرجوا إلى موضع يقال له: تل الرماد وتل التوبة، وإنما سُمي به لأنهم وضعوا الرماد على رؤوسهم والشوك تحت أرجلهم. فلما رفعوا أصواتهم بالبكاء قالت الملائكة: يا رب، رحمتك وسعتْ كلَّ شيء، فهؤلاء الأكابر من ولد آدم تعذبهم، فما بال الأصاغر والبهائم؟ فقال الله تعالى جلت عظمته وقدرته قد رحمتهم، وأمر جبريل عليه السلام أن يكشف عنهم العذاب[١].

وروى الموفَّق أيضاً بإسناده إلى أبي الجَلْد: أنَّ العذاب لما هبط على قوم يونس فجعل يحوم على رؤوسهم مثل قطع الليل المظلم، مشى ذوو العقول منهم إلى شيخ من بقية علمائهم فقالوا: قد نزل بنا ما ترى، فعلِّمنا دعواتٍ ندعو بها عسى أن يرفع الله عنا العذاب، قال: قولوا: يا حيُّ حين لا حي[٢]. وقد ذكرناه.

وروى الموفق عن الحسن: أنَّ يونس بعدما أنجاه الله من بطن الحوت مَرَّ في برية براعٍ من رعاة قومه، فقال له يونس: ممن أنت؟ فقال: من قوم يونس بن متى، قال: فما فعل يونس؟ قال: لا أدري إلا أنه كان من خيار الناس وأصدق الناس، أخبَرَنا عن العذاب فجاءنا كما قال، فتُبنا إلى الله فرحمنا، ونحن نطلبه فلا نجده ولا نسمع له ذكراً، قال يونس: فهل عندك من لبن؟ قال: لا، والذي أكرم يونس ما مطرت السماء ولا أعشبت الأرض منذ فارقنا يونس. قال: ألا أراكم تحلفون بإله يونس؟ قال: لا نحلف بغير إله يونس، من حلف بغير إله يونس في مدينتنا نُزِعَ لسانه من قفاه. فقال له يونس: متى استحدثتم هذا؟ قال: منذ كشف الله عنا العذاب. قال يونس: ايتني بنعجةٍ، فأتاه بنعجة مسلوبة[٣] فمسح على بطنها وقال: دُرِّي لي بإذن الله، فدرَّت فاحتلبها يونس، فشرب يونس وسقى الراعي، فقال الراعي: إن كان يونس حيّاً فأنت هو. قال: أنا هو، فأتِ قومك فأقرئهم مني السلام. قال: فإن الملك قال: من أتاني به أو ذكر أنه

(١) انظر «التوابين» ٣٢ـ٣٣.

(٢) انظر «التوابين» ٣٣.

(٣) في (ب): هزيلة.

رأى يونس وجاء على ذلك ببرهان خلعتُ له مُلكي وجعلته مكاني ولحقتُ بيونس. ولا أقدرُ أن أبلغه ذلك إلا بحجَّة، فإني أخاف أن يقول الملك: إنما قلت هذا طمعاً في ملكي، وليس أحد يكذب كذبة إلا قتلوه. فقال يونس: تشهد لك الشاة وهذه الصخرة التي كان مستنداً إليها. وقال يونس: تشهدا له. فانطلق إليهم الراعي فأخبرهم فكذبوه، فقال: الشاة تشهد لي والصخرة، فشهدتا له فصدقوه وقالوا: أنت خيرنا وسيدنا حيث رأيت يونس، وملَّكوه عليهم فدبّر أمرهم أربعين سنة وقيل: سبعين سنة، وكان آخر العهد بيونس عليه السلام[١].

وفي رواية: أن الغلام أتى الملك فأخبره فأمر بقتله فقال: إنَّ لي بيِّنة فأَرسلوا معي فأَرسَلوا معه فشهدت له الشاة والصخرة. قال ابن مسعود: فقال له الملك: أنت أحقُّ بهذا الملك مني. وقام وأخذه بيده وأقعده موضعه، فأقام لهم الغلام أمرهم سبعين سنة[٢].

فإن قيل: فما معنى قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا﴾[الأنبياء: ٨٧] والمغاضبة إنما تكون بين اثنين، لأنها مفاعلة كالمناظرة والمجادلة والمقاتلة، والله تعالى لا مفاعلة بينه وبين عباده؟ والجواب من وجوه:

أحدها: ما قاله الضحاك: أنه ذهب مغاضباً لقومه. وهي رواية العوفي عن ابن عباس[٣]. وهو ما ذكرنا أنَّ الله أمر شَعْيا أن يأمر حِزقيا أن يبعث نبياً ليخلص بني إسرائيل، وأنَّ يونس خرج على كرهٍ منه، وأنه ألقى نفسه في بحر الروم.

والثاني: أنه إنما ذهب مغاضباً لربِّه حين كُشِفَ عنهم العذاب بعدما أوعدهم به، لأنه كَرِه أن يكون بين قوم قد جرَّبوا عليه الخلف فيما وعدهم به، واستحيا منهم ولم يعلم السبب الذي رفع الله به عنهم العذاب والهلاك، فخرج مغاضباً لربه وقال: والله لا أرجع إليهم كذَّاباً أبداً. وفي بعض الأخبار: أنهم كانوا يقتلون من جرَّبوا عليه الكذب، فلما لم يأتهم العذاب في الموعد الذي وعدهم خشي أن يقتلوه، قاله وهب[٤].

---

(١) انظر «التوابين» ٣٣.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٤١٤.

(٣) انظر «تفسير البغوي» ص ٨٥١، و«زاد المسير» ٥/ ٣٨١.

(٤) انظر «تفسير البغوي» ص ٨٥١.

والثالث: ذكره الحسن وقال: إنما غاضب ربه من أجل أنه أمره بالمسير إلى قوم لينذرهم بأسه ويدعوهم إليه، فسأل الله أن ينظره ليتأهب للشخوص إليهم، فقيل له: الأمرُ أسرعُ من ذلك، فلم يُنظر، حتى سأل أن يُنظرَ حتى يأخذ نعليه فيلبسهما، فقيل له نحو القول الأول، وكان رجلاً في خلقه ضيق، فقال: أعجلني ربي أن آخذ نعليَّ فخرج مغاضباً[١].

وأما قولهم: إن المفاعلة إنما تكون بين اثنين، فقد تكون من واحد، فإن العرب تقول: طارقت النعل، وعاقبت اللص، وشارفت الأمر.

ومعنى قوله: ﴿مُغَٰضِبًا﴾ أي: غضبان.

وقال مقاتل: إنما غضب لأنه وعد قومه العذابَ في يوم بعينه، فلما فات الأجل[٢] ولم يعذبوا أَنف أن يعود إليهم، فمضى إلى السفينة كالعبد الآبق.

فإن قيل: فما معنى قوله: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ الآية [الأنبياء: ٨٧]؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أنَّ معناه: فظن أن لن نقضيَ عليه العقوبة. قاله مجاهد في آخرين[٣]. وقد قرأ عمر بن عبد العزيز: «فظنَّ أن لن نُقَدِّر عليه» بتشديد الدال[٤].

والثاني: أنَّ معناه: لن نضيِّقَ عليه الحبس من قوله: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾[الطلاق: ٧] أي: ضُيِّقَ، رواه العوفي عن ابن عباس.

وقيل: إنَّ معناه: فظن أنه يعجز ربه فلا يقدر عليه. قاله الحسن البصري: قلت: ما نقل الحسن البصري رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ معناه: فظن أنه يعجز ربه فلا يقدر عليه، هذا كلام فاسد لا نظن مثله في آحاد المؤمنين، فكيف بيونس عليه السلام، ومثل هذا لا يقوله الحسن رحمه الله، والله أعلم.

---

(١) انظر «تفسير البغوي» ص ٨٥٢.

(٢) في(ك): بعينه فلم يأت الأجل، والمثبت من (ب) و(ط).

(٣) انظر «تفسير البغوي» ص ٨٥٢، و«زاد المسير» ٥/ ٣٨٢.

(٤) انظر «تفسير البغوي» ص ٨٥٢.

والمراد بالظلمات: ظلمة البحر، وظلمة الليل، وظلمة [بطن] الحوت الذي بلعه، وظلمة بطن الحوت [الذي ابتلع الحوتَ الأول][(١)]، وظلمة الذَّنبِ.

ومعنى ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] حين أغضبتك.

وأنبأنا أبو القاسم بن مسلم الصفار الموصلي بإسناده عن أبي هريرة ﷺ عَن رسول الله ﷺ قال: «لمَّا نَزَلَ يُونسُ إلى قرارِ البحرِ سَمِعَ تَسبيحَ الملائكةِ والحِيتانِ فسبَّحَ هو في بطن الحوتِ، فسمعَتِ الملائكةُ تسبيحَه فقالت: يا ربَّنا، نسمعُ صوتاً ضعيفاً بأرضٍ غريبةٍ، فقال الله: ذاكَ عَبْدِي يُونسَ عصاني فحبستُه في بطنِ الحوتِ، قالوا: العبدُ الصالِحُ؟! قال: نَعَم، فشفَّعَهم الله فيهِ»[(٢)].

فإن قيل: فلم عاقبه بحوت؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أن عقوبة الله تعالى لا تشبه عقوبات خلقه فيُظهِر قدرته بما يعجز عنه البشر.

والثاني: لأن الله تعالى له سجون كثيرة وقد كان آيسَ قومَهُ من رحمة الله وقال: لا يغفر الله لكم أبداً.

والثالث: أنه لما ظنَّ أن لن نقدر عليه حبسناه في أضيق السجون.

وقال مقاتل: واسم الحوت زالوخا.

قال السُّدي: رأى في البحر ملكاً قائماً على كرسي من قرار البحر إلى رأس الماء فقال: يا رب، من هذا؟ قال: ملك البحر. وقد وكله الله به، وبين يديه رجل وهو يبصق في وجهه ويقول: ويحك، أما استحييت تقول: أنا ربكم الأعلى؟ فقال: من هذا؟ قال: فرعون. قال: ورأى رجلاً يُخسف به كل يوم فقال: من هذا؟ قال: قارون.

وذكر أبو حنيفة بن النُّوبي: أنه صار بطن الحوت كالقوارير حتى رأى عجائب البحر كلَّها، وسمع أنين قارون، وسمع قارون تسبيح الملائكة، فقال قارون للملك الموكل به: ما هذا التسبيح؟ قال: تسبيح يونس. فناداه: يا يونس، ما فعل ابن عمي موسى؟ قال: مات. قال: واويلاه. ثم قال: وأخوه هارون؟ قال: مات. فقال: واانقطاع ظهراه.

---

(١) ما بين حاصرتين من «تفسير الثعلبي» ٩/ ١٦٠، والبداية والنهاية ٢/ ٢١.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١٩/ ٦٢٨ من حديث أنس ﷺ مرفوعاً، وانظر «عرائس المجالس» ص ٤١٣، و«تفسير ابن كثير» ٣/ ١٩٢.

فقال له يونس: ألا تتوب إلى الله تعالى؟ فقال: توبتي إلى موسى. فأوحى الله إلى يونس قد خفَّفت عذابه بحزنه على قرابته. وفي رواية فقال: وما فعلت أختهما كلثم؟ قال: ماتت. قال: وانقْصَ قرابتاه. قال: ورأى هامان وغيره.

فإن قيل: فكم لبث في بطن الحوت؟ قلنا: فيه أقوال:

أحدها: أربعون يوماً، قاله أنس وغيره.

والثاني: سبعة أيام، قاله سعيد بن جبير.

والثالث: ثلاثة أيام، قاله مجاهد.

والرابع: عشرون يوماً، قاله الضحاك.

والخامس: بعض يوم، التقمه وقت الضحى وقذفه قبل الغروب، قاله الشعبي[١]. والأول أصحُّ.

﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ﴾ وهو المكان الذي لا يُتوارى فيه بشجر ولا غيره ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾[الصافات: ١٤٥] أي: مريض.

﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾[الصافات: ١٤٧] واختلفوا في «أو» على أقوال:

أحدها: أنها بمعنى «بل»، قاله ابن عباس والفراء.

والثاني: أنها بمعنى الواو، أي: ويزيدون[٢].

والثالث: أنها بمعنى الشك في عددهم، لأنهم قد اختلفوا في الزيادة، فروى أُبي ابن كعب عن رسول الله ﷺ: «كانوا عشرين ألفاً»[٣]. وقال ابن عباس: ثلاثون ألفاً. وقال ابن جبير: سبعون ألفاً[٤].

فإن قيل: فما معنى: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾[الصافات: ١٤٠] الآيات؟

---

(١) انظر «التبصرة» ١/ ٣٢٨.

(٢) انظر «التبصرة» ١/ ٣٢٨، و«زاد المسير» ٧/ ٨٩.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٢٢٩).

(٤) انظر «التبصرة» ١/ ٣٢٨ـ٣٢٩.

فالجواب: أنَّ معنى: أبقَ، أي: هرب، والفلك: السفينة، والمشحون: المملوء، وساهم، أي: قارع، وهي إلقاء السهام على وجه القرعة، والمدحض: المغلوب، والتَقَمَه: ابتلعه، والمليم: المذنب الذي يُلام على ما أتى به، والمسبِّحين: المصلِّين العابدين.

وقال الحسن: لم يكن له صلاة في بطن الحوت، وإنما قدَّم عملاً صالحاً، ولولا ذلك العمل ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾[الصافات: ١٤٤] أي: صار بطن الحوت له قبراً[(١)].

قال ابن عباس: إنما كانت رسالة يونس بعدما نبذه الحوت، قال: ودليله أنَّ الله ذكر قصَّة يونس في سورة الصافات ثم عقبها بقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾[(٢)].

قلت: والأصح أنَّ قصة الحوت كانت بعدما أرسله إلى قومه، لأن الله قد ذكره في سورة يونس وهي مقدمة على الصافات، وأيضاً فإن الواو للجمع وعليه عامة المفسرين.

وقوله: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـْۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾[الأنبياء: ٨٨] إذا استغاثوا بنا ودعونا.

فإن قيل: فما معنى قوله: ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ [الصافات: ١٤٦]؟ قلنا: قد اختلفوا في اليقطين:

قال ابن مسعود: وهو القَرْع. وقال ابن عباس: هو كل نبت يمتدُّ وينبسط على وجه الأرض ولا يبقى على الشتاء، وليس له ساق، نحو: القَرْع، والقِثَّاء والبِطِّيخ، ونحوه.

وقيل: إنما خص اليَقطِين لأنه لا تقربُه الذباب.

وقال مقاتل: ثم عاد يونس إلى الشام، فتوفي بأرض فلسطين.

ويقال: إن قبره بقرية مشهورة يقال لها: حَلحُول من أعمال[(٣)] الخليل عليه السلام. ورأيت في بعض التاريخ أن قبره بالكوفة، وفيه بُعد، والله أعلم[(٤)].

---

(١) انظر «تفسير البغوي» ص ١١٠١، و«زاد المسير» ٧/ ٨٦ـ٨٧.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٤١١.

(٣) في (ك): أرض، والمثبت من (ب) و(ط).

(٤) اعتمد الدكتور إحسان عباس فيما بعد هذه الأخبار في نشرته للكتاب على نسخة (ب)، وهي مختصرة جداً، وقد اعتمدنا هنا على نسخة كوبريللي والخزائنية التي رمزنا لها بـ (خ).